

كَلِيلَةُ وَمِنْتَهٰ كِتَابِ الْأَمَمِ

أ.د. عقيل عبد الحسين (*)



ملخص البحث:

افترض البحث أنَّ في الثقافة العربيَّة الكلاسيكيَّة كتاباً تصحُّ تسميتُها «كتب الأُمم»؛ لأنَّ موضوعها الأُمَّةُ ومدارها الإجابةُ على سؤال: ما الذي يضمنُ بقاءَ الأُمَّةِ قويةً ومُتماسكةً وعصيَّةً على العدو؟ وتنشأُ هذه الكُتبُ في سياقِ تارِيخيٍّ يَظُهرُ فيه ما يُهدِّدُ الأُمَّةَ، مثل دكتاتوريَّةِ الحَاكِمِ وجَوْرِهِ وما تبعُهُ من عداوةٍ في نفوسِ الرَّعَيَّةِ، وكريهِ له. ومثل الانقساماتِ الفكريَّةِ، والمذهبيةِ، والعرقيَّةِ، التي قد تفيُّذُ من هفواتِ الحَاكِمِ وعداؤهِ النَّاسِ له فتسبِّبُ تمزيقَ الأُمَّةِ. وينشئُ هذه الكُتبُ مثقفونَ لهم اتصالٌ مباشرٌ بالسلطانِ، وقريبونَ من الصِّراعاتِ الداخليَّةِ والخارجيَّةِ، يعونَ أثراها البعيدةَ والقريبَ في تعريفِ كيانِ الأُمَّةِ للخَطَرِ والزَّوالِ، فيُضَمِّنُونَ الكُتبَ ما يكونُ تنبِيئاً للحاكمِ من الخَطَرِ، وتقدِيمًا للعبرةِ. ولكنَّ التَّنبِيَّهِ والعبرةِ يكونانِ بالحكايةِ المَثَلِيةِ، أو الإليکوريَّةِ، وهي ما بُنيَ عليها كتابُ كَلِيلَةُ وَمِنْتَهٰ كِتَابِ الْأَمَمِ؛ فهو مجموعةٌ منِ الحِكاياتِ على لسانِ الحَيَوانِ، ظاهِرُهَا التَّسْلِيَّةُ، وباطِنُهَا العِظَةُ والتَّنبِيَّةُ، ومدارُهَا كُلُّها الأُمَّةُ وحمايتها من الخَطَرِ، وتقديمُ ما يُنجِيُها منه.

(*) جامعة البصرة / كلية الآداب.

الكلمات المفتاحية: كتاب الأمم - ابن المقفع -
كليلة ودمنة - الأمة - الحكاية الأمم.
ما كتاب الأمم؟

عند العرب أنهم خلقوا ليسودوا وغيرهم خلق
ليخدمهم^(٤). وكانوا - الأقليات - في الترتيب أدنى
طبقات المجتمع^(٥). وقسم من هؤلاء، ومنهم ابن
المقفع، الفارسي الأصل، صاروا يتجهون إلى
نصيحة الحاكم بأسلوبٍ صريحٍ مرّ، وبأسلوبٍ
غير صريحٍ آخر؛ لتنبيهه إلى أنَّ التسلطَ خَطَرٌ
على الأمة، واقتراح كِتابَةٍ له، تتضمَّنُ الطريقة
لحفظها، وتجنيبها الخطر؛ فهو تابع للسلطة،
ومُمثَّلٌ، في الوقتِ نفسيه، لرموزها، لا قدرة
عنه، في ظل سلطنة قوية ومركزية، على التَّكلُّم
بصوته. وخِيرُه أنَّه يستعمل أسلوبًا أدبيًّا، رمزياً،
للحديث عن موضوع مثل الأمة، من مصلحة فئاتِ
المجتمع، كلَّها، الانفاق على شكله، وطريقة إدارة
علاقات السلطة فيه، فيما يسميه مُحَمَّد عابد
الجَابِريِّ محاولة ابن المقفع تشكيل ما يمكن أنْ
يُدعى رأي الخاصة - المُتَقَفِّفين - في أحوال الدولة
العامَّة^(٦). وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة في زمن
الخليفة العباسي القوي، أبي جعفر المنصور
(ولي الخلافة سن ١٣٦-١٥٨هـ).

٢. كتاب له قيمة قومية. هذا ما يقوله، صراحةً
المَلِك دَبَشْلِيم الْحَكِيم بَيْدَبَا: أَرِيدُ أَنْ تُولِّفَ لِي
كتابًا يكون علامةً على مُلْكِي، مثلما فعلت آبائي

(٤) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، مطبعة التقىض، بغداد، ١٩٤٥، ص ٦.

(٥) شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط ١٠، ١٩٩٦، ص ٥٣.

(٦) يُنْظَر: هيثم سرحان، تمثيلات التابع والرد بالكتابة - قراءةٌ بلاغية في الرسالة الهاشمية لابن المقفع، المجلة العَرَبِيَّة للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ١٦٦، ٢٠٢٤، ص ١٧٧-١٧٧.

يُنْبِه النقاد المعاصرون على أنَّ الأمة كيانٌ
سياسيٌ، مُتخيلٌ، أو جماعةٌ مُتخيلة^(١). وأنه،
لذلك، يحتاج إلى مَرْوِيَّاتٍ تعززه. وتنقسم إلى
 مباشرة، بأن تكون روایات ترمز إلى أصول الأمة،
 وتكونها، وإلى مَرْوِيَّاتٍ غير مباشرة، بأنْ تُربِّي
 الفرد، لتقديم أثمن ما لديه لهذا الكل العظيم
 المُسْمَى (الأمة)^(٢)، دارئًا عنها خَطَرَ التَّمَرُّقِ،
 والزوال. ولعل هذه الوظيفة الأخيرة، هي ما
 تؤديه الكُتب، التي اصطلاح عليها (كتب الأمم).
 ومن أبرزها، وأشهرها، وأشدّها تأثيرًا، وحضورًا
 في حياة الأمة، كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع،
 أو ترجمة ابن المقفع. وأهم سمات هذه الكتب،
 وتحديداً كتاب كليلة ودمنة، الآتي:

١. كتاب يُؤَلِّفُ في سياق تاريخي، تبرز فيه
 سلطة مركزية، تتمتع بقوة عسكرية، تُنشئ
 وتحرس الأمة من جانب، ومن جانب آخر، تمارسُ
 على شعبيها (الاستبداد والقهر والبطش الذي لا
 يعرف رفقاً ولالينا)^(٣)، ولا سيما على الأقليات،
 والمختلفين دينياً ومذهبياً وعرقياً، وتزدريهم،
 وتُسْكِنُهم فلا تَسْمَح لهم بالكلام، أو التعبير عن
 خصوصياتهم اللغوية والثقافية، فقد ساد شعورٌ

(١) نادر كاظم، أمة لا اسم لها، دار الشؤون الثقافية،
 بغداد، ٢٠٢١، ص ١٨-١٩.

(٢) م. ن، ص ٢٧.

(٣) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف،
 مصر، ط ٩، ص ٢٦.

إلى معظم لغات العالم المُتمدن حَتَّى الفارسية والهنديَّة فإنَّهم نقلوه إليهم من اللُّغة العَرَبِيَّة^(٩). وُتُرجم إلى السريانية، في حدود القرن العاشر، وإلى اليونانية سنة ١٠٨٠، وإلى الفارسية سنة ١١٢٠، وإلى العبرانية، واللاتينية، في القرن الثالث عشر، وإلى الإسبانية سنة ١٢٥١، وإلى الإنكليزية سنة ١٨١٩، وإلى الروسية سنة ١٨٨٩. ولاحقاً تُرجم إلى الفرنساوية، والإيطالية، والسلافونية، والتُركية، والألمانية، والدُنماركيَّة، والهولندية، وغيرها^(١٠).

٤. كتاب منسوب إلى أُمَّةٍ تحرص على ألا يخرج منها إلى غيرها من الأُمم؛ فقد (ظلَّ هذا الكتاب محفوظاً في خزائن ملوك الهند يحرصون عليه حرثهم على أثمن الكنوز، لا يسمحون لسوادهم بالاطلاع عليه)^(١١). وكان يبدأ بالحَكِيم، مؤلف الكتاب، طلب من الملك المحافظة على الكتاب، فلا يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس إذا علموا به؛ لأنَّه يعكس رؤيتهم للطريقة التي تبني عليها الأُمَّة، وتقوى، وتستمر. وهي ميزة، لا يريدون لغيرهم أن يصل إليها، فيقوى بها، ويُشكّل خطراً عليهم.

٥. كتاب لا يضيع، ولا يندثر. ويبقى حاضراً:

(٩) ابن المُقْفَع، كِلِيلَة وَدِمْنَة وتأريخها، سابق، تقديم: محمد حسن نائل المرصفي، ص ١١.

(١٠) يُنظر: م. ن، ص ١٦.

(١١) سأضع النقولات الحرفية من كتاب كِلِيلَة وَدِمْنَة بين قوسين منفردين. وهي من: عبد الله بن المُقْفَع، كِلِيلَة وَدِمْنَة، تحقيق مصطفى لطفي المنفلوطي، دار الكتاب العَرَبِيِّ، بيروت-لبنان، د.ت.

في تأليف كتبٍ كانت علامات على ملِكِهم. ويُسرّ الحَكِيم للطلب، ويطرُب له، ويُخَفِّ إلى تنفيذه؛ فهذا ما يبحث عنه، حتَّى يصونَ أمَّته. ومعها - أي كُتُبَ الْأُمَّم - تُرِيدُ كُلُّ أُمَّةٍ من الْأُمَّمِ أَنْ يكونَ لها واحدٌ مثله؛ ففي مقدمة الكتاب، أنَّ كسرى أنوشروان طلب أنْ يُجلِّبَ الكِتابَ له من خزائِن ملِكِ الهندِ، الذي يَحرِصُ على ألا يَخْرُجَ منها إلى الأُمُّمِ الأخرى. ويكلف كسرى طبيباً يُدعى بِرْزُوْبِه، ويعطيه من الأموال كثِيرًا، ليصل إلى الكتاب بعد أنْ يوهم مُقرِّبِي المَلِكِ أنه مُحْض طالبٍ علم، ليصل إلى خزانةِ الملك، وينسخ الكتاب سرًّا، ليلاً، ويحمله إلى كسرى، الذي يُفرِّحُ به؛ فهو مَدْعَاةٌ لرغبةِ الأُممِ في امتلاكه واحِدٍ مثله: مُؤلِّفاً، أو مُتَرَجِّماً، فحين نَقَلَه عبد الله بن المُقْفَع إلى العَرَبِيَّة حسدُ علماءِ اللُّغةِ الفارسية الفارسية^(٧). ويقول أحمد أمين: إنَّ ابن المُقْفَع ترجمَه، وزادَ فيه، ليعملَ في الخُلُفاءِ، والرَّعْيَةِ، ما فعلَه في الهند وفارس^(٨). وقد كان، أي ابن المُقْفَع، حريصاً على أنْ يكونَ لِأَمَّةِ العَرَبِ كتاباً مثله؛ لذا نقله إلى العَرَبِيَّة.

٣. كتاب يحظى بمكانة عالمية، فيُترجم إلى أُمم، وشعوب كثيرة، مُختلفة. ويجد في القراء منهم فائدةً ومُتعة؛ فقد نُقلَ كِلِيلَة وَدِمْنَة إلى (اللُّغَةِ التَّيَّبِيَّةِ وَالفارسيةِ) ومن هذه إلى العَرَبِيَّة

(٧) عبد الله بن المُقْفَع، كِلِيلَة وَدِمْنَة وتأريخها، منشورات المؤسسة المتحدة للكتاب، بيروت، ط ٢٠٨٠، من تقديم: محمد حسن نائل المرصفي، ص ١٥.

(٨) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٣٢.

قراءةِ الحِكْمَةِ والعلوم^(١٤). وهذه ليست لها، وأقرب إلى علوم الأُمّة، أو الأُمم، في حالته؛ لأنَّه مُطلَّع على أدبِ الفُرس بسبِبِ أصولِه الفارسية، ويعرفُ لغاتٍ أخرى، ومن نَمَ، فلا تناقضَ بين زندقَتِه، وميولِه، وما ينتُجُ من كُتبٍ، مثل: الأدب الصَّغير، والأدبُ الكَبير، وكِلِيلَةُ وِدِمنَة. وهي كتب في سياسةِ الرُّعْيَةِ، والأَخْلَاقِ العَامَّةِ، والخَاصَّةِ؛ إذ هذه ليست كُتبَةُ بل كتبَ قوميَّة، وخلاصَةُ العقل الجمعي.

٧. إنْ مؤلِفَه - ومتَرجمَه من بعده - لا يُعنِي بأمرِ الدِّين؛ فلم يكن دَبَشَلِيم إِلا حَكِيمًا، هُمَّة مصلحةُ أمَّتِه، وفي الْكِتابِ، كِتابِ كِلِيلَةُ وِدِمنَة، إِشاراتٌ إلى أنَّ الْبَرَاهِمَةَ، وهم طبقةُ رجالِ الدِّينِ، الْهُنُودَ، أَشْرَارُ غَايَتِهِم مصلحتُهُم الشَّخْصِيَّةَ، وَكَانَ بِرْزُويَّهُ ناقدُ الْكِتابِ إِلَى كَسْرِي طببيًّا، وحَكِيمًا. ثم إنَّ ابنِ المُقَفَّعِ كانَ حَكِيمًا مُطلَعاً على كتبِ الأدب^(١٥)، وَكَانَ ذَكِيرًا، شَدِيدَ الذَّكاءِ، دَقِيقَ الْحِسَنِ^(١٦). ولَكِنَّه من ناحيَةِ الاعتقادِ كانَ زَنْديقاً^(١٧). ولعلَّه وصفَ الْأَصْقَبَ به، نَتْيَاجَةً تَغْلِيَّبِهِ مصلحةُ الْأُمَّةِ، على المصلحةِ الدينيَّةِ، أو الإثنيَّةِ. وهي مصلحةٌ تَتَحَقَّقُ بالتأمِّلِ، والتَّدَبُّرِ، وبالشَّراكةِ العاطفيةِ، وتشملُ النَّاسَ، كُلَّهُمْ، أَيًّا كَانَ دِينَهُمْ، أو مذهبَهُمْ، أو عرقَهُمْ، أو لونَهُمْ. وقد استنتج،

(١٤) ابن المُقَفَّع، كِلِيلَةُ وِدِمنَةُ وتاريَخُها، سَابِق، تقديم:

محمد حسن نائل المرصفي، ص ٢١.

(١٥) يُنْظَرُ: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، د.ت، ص ١٣٤.

(١٦) يُنْظَرُ: نفسه، ص ١٣٧.

(١٧) يُنْظَرُ: م. ن، ص ١٣٦.

نَسْخًا، وإعادة نشر، وقراءة، وبحثًا فيه؛ فهو الْكِتابُ الذي (بقي على الدَّهْرِ وارتَفَعَتْ به أُمَّمٌ مُختَلِفةً)^(١٨). ويقول جرجي زيدان: إنَّ الْكِتابَ في الْقَدِيمِ، وقتَ تُرْجِمَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، واطَّلَعَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ، أَعْجَبُوا بِهِ، وَتَدَارَسُوهُ، وَتَنَاقَلُوهُ، وَاشْتَغَلُوا بِنَظِيمِهِ شِعْرًا، تَسْهِيلًا لِحَفْظِهِ، وَطُبِّعَ مَرَارًا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. وهو إِلَى الْآنِ مَا يَزاَلُ مِنْ خِيرَةِ كُتبِ الْإِنْشَاءِ^(١٩).

٦. كِتابٌ تكونُ نِسْبَتُهُ لِقَوْمٍ، لَا لِمُؤَلِّفٍ، فـ(كِلِيلَةُ وِدِمنَة)، فِي الأَصْلِ يُؤْلَفُ بِطَلَبِ مِنَ الْمَلِكِ دَبَشَلِيمِ، وَيُرِيدُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ، حَتَّى يُلْحَقَ بِآبَائِهِ، فِي عَلَوِ الْذَّكْرِ. ثُمَّ، فِي نَسْخَتِهِ الْفَارَسِيَّةِ، هُوَ مِنْ نَسْخِ (بِرْزُويَّهِ)، وَيُسْتَقْدَمُ مِنْ خَزَانَةِ مَلَكِ الْهَنْدِ بِطَلَبِ مِنْ كَسْرَى. وَفِي الْعَرَبِيَّةِ هُوَ مِنْ تَرْجِمَةِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ، وَلَيْسَ مِنْ تَأْلِيفِهِ، وَإِنْ كَانَتْ شُبَهَةُ التَّالِيفِ وَارْدَدَةً عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَصْوَلَهُ الْهَنْدِيَّةُ، وَالْفَهْلَوِيَّةُ، ضَاعَتْ. وَلَأَنَّ أَبْوَابًا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ. وَتَرُدُّ إِشَارَةُ أَجْدُهَا بِلِيْغَةِ فِي هَذَا السَّيَاقِ؛ لِأَنَّهَا تُحاوِلُ أَنْ تَفَصِّلَ بَيْنَ الْمُؤَلِّفِ وَالْكِتابِ، بِالْفَصْلِ بَيْنَ شَخْصِيَّتِيْنِ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ، الْأَوَّلِ: الْذَّاتِيَّةُ، وَالثَّانِيَةُ: الْجَمِيعِيَّةُ. أَمَّا الْذَّاتِيَّةُ فَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مِيَوْلِ إِلَى الْزَّنْدَقَةِ، تَوَلَّ مِنْهَا مِيَوْلَ إِلَى اللَّهِ وَالْمُجْوَنِ، وَهَذِهِ لَا يَصْدِرُ عَنْهَا، مُؤَلَّفًا، كِتابٌ فِي الْحِكْمَةِ مِثْلَ كِلِيلَةُ وِدِمنَةُ. وَالْجَمِيعِيَّةُ هِيَ مَا اكْتَسَبَهُ مِنْ

(١٨) ابن المُقَفَّع، كِلِيلَةُ وِدِمنَةُ وتاريَخُها، سَابِق، تقديم: محمد حسن نائل المرصفي، ص ١١.

(١٩) يُنْظَرُ: تاريخ آداب اللغة العربية، راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ١٣٥-١٣٤.

النبيّ؛ إذ إنَّ النَّضر بنَ الحارث كانَ في بلاد فارس، فعلمَ ما في كِتابِ گلِيلَة وَدِمْنَة، فعِمَدَ إلى شرائِهِ، وجعلَ يُحَدِّث به قريشاً، فاستَمْلَحُوهُ، وترَكوا الاستِمَاع إلى القرآن^(٢٢). وبينَ أَنَّ قريشاً، شعرتْ بِخَطَرِ النَّبِيِّ على مفهومِ الْأَمْمَة، الذي يتَبَيَّنُونَهُ، ووجودَهَا، فلَجَاؤا إلى كِتابِ خاصِّيَّتِهِ البعيدة، التَّنبِيهُ إلى الخطر، وتقتِيَّته. وكِتابِ گلِيلَة وَدِمْنَة في سببِ تأليِفِهِ: إِنَّهُ كَانَ لِمواجِهَةِ الخَطَرِ الذي يعرضُ للحاكم، ونظامِ الحكم، وللأمَّةِ منْهُمْ.

١٠. الكِتابُ المُلْتَبسُ النَّسْبَةُ إِلَى مُؤَلِّفِهِ، أو مُتَرَجمَهُ، وكِتابٌ لمْ يُؤَلِّفْهُ رَجُلٌ واحدٌ في زَمْنٍ واحد^(٢٣). ومن المُعْرُوفِ أَنَّ گلِيلَة وَدِمْنَة بِنسختِهِ الْعَرَبِيَّةَ، قد ضاعتْ أصولُهُ الْهِنْدِيَّةُ، وَالْفَارَسِيَّةُ؛ لذا شَكَّ قَسْمٌ مِّنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي أَنَّهُ ترجمَهُ، فَقَالُوا: إِنَّ هُنَاكَ مِنْ قَالَ إِنَّهُ مِنْ وَضْعِ ابْنِ الْمُقْفَعِ وَهُوَ قَوْلٌ مَقْبُولٌ لَا بَأْسَ بِهِ^(٢٤). وقطع صاحبِ كِتابِ الْوَافِي بالِّوَفِيَّاتِ بِأَنَّ كِتابَ صُنْعَهُ ابْنُ الْمُقْفَعِ، وعِزَّاهُ إِلَى الْهِنْد^(٢٥). ويقولُ عَمَرُ فَرُوخٌ: إِنَّ كِتابَ

(٢٢) يُنظر: عبد الله بن المُقْفَع، گلِيلَة وَدِمْنَة، تحقيق زياد كاظم، آشور، بغداد، ط ٢٣/٢٠٢٣، المقدمة، ص ٩-١٠.

(٢٣) يُنظر: عَمَرُ فَرُوخٌ، عبد الله بن المُقْفَع وكتابِ گلِيلَة وَدِمْنَة، سابق، ص ١٧.

(٢٤) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ١٦٥.

(٢٥) يُنظر: صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي، الْوَافِي بالِّوَفِيَّاتِ، تحقيق: أَحمدُ الْأَرْنَاؤُوطُ وَتُرْكِي مصطفى، دار إحياء التراث العَرَبِيِّ، بيروت-لبنان، ط ١٢٠٠، ج ١٧، ص ٣٤٢.

أَيِّ الوَصْفِ، مِنْ تَأْوِيلِ قصصِ الْكِتابِ؛ فَقِيلَ إِنَّ فِيهَا حِكْمَ الدِّيَانَاتِ الْقَدِيمَةِ، مُثْلَ الْمَانُوِيَّةِ، وَالْمَزْدَكِيَّةِ، وَالْزَّرَادِشْتِيَّةِ، وَتَعَالِيمِهِمْ. وَقَدْ حَرَصَ الْمُتَرَجِّمُونَ، وَمِنْهُمْ ابْنُ الْمُقْفَعِ، وَلَا سِيمَا فِي كِلِيَّةِ وَدِمْنَةِ، عَلَى نَقْلِهَا عَبْرَ التَّرْجِمَةِ. وَإِنَّهَا كَانَتْ سَبِيلًا فِي ازْدِيَادِ جَمَاعَةِ الزَّنَادِقَةِ^(١٨). وَفِيهَا، أَيْضًا، مِنِ الإِسْلَامِ قَيْمًا، وَطَرِيقَةَ تَفْكِيرٍ، وَتَنَاسُقًا مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْحَدِيثِ النَّبِيِّيِّ^(١٩).

٨. كِتابٌ يَظْلُمُ فِي حاجَةٍ إِلَى الْاِتِّمامِ، وَيَرْجُحُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ أَنَّ ابْنَ الْمُقْفَعَ زَادَ عَلَى الْكِتابِ فَصُولًا لَمْ تَكُنْ فِي الْأَصْلِ، وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْقِصَصِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ كَانَ قِصَصًا مُتَفَقَّهَةً، ضُمِّنَتْ، وَزِيَّدَ عَلَيْهَا^(٢٠). وَقَدْ عَدَّلَتْ (تَرْجِمَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُقْفَعِ) بِتَوَالِي الْأَزْمَانِ-يَقُولُ جرجي زيدان-بَيْنَ تَنْقِيَحٍ، وَتَذَيِّلٍ، فَبَلَغَتْ أَبْوَابَهَا ٢١ بَابًا^(٢١). وَيَرْجُعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ لَا يَتَوَقَّفُ فِي زَمَانٍ، أَوْ مَكَانٍ. بَلْ يَمْرُّ مِنْهُمَا إِلَى غَيْرِهِمَا، فَيَحْتَاجُ، مَنْ يَسْتَعْمِلُهُ فِي سِيَاقِهِ الْجَدِيدِ، إِلَى إِلْيَاضَفَةٍ إِلَيْهِ، مَنْ دُونَ أَنَّهُ يَمْسِّ بِدُعَوَاهُ، أَوْ غَایَاتِهِ الْقَوْمِيَّةِ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ.

٩. كِتابٌ يُسْتَخَدَمُ لِالتَّصْدِيِّ لِخَطَرٍ يَعْرُضُ لِلأمَّةِ. وَفِي مَرْوِيَّاتِ قَدِيمَةِ ادْعَاءِ بِأَنَّ أَوَّلَ ظَهُورِ گلِيلَةِ وَدِمْنَةِ فِي التَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَانَ فِي أَثْنَاءِ حِيَاةِ

(١٨) يُنظر: م. ن، ص ١٢٣.

(١٩) يُنظر: عَمَرُ فَرُوخٌ، عبد الله بن المُقْفَع وكتابِ گلِيلَةِ وَدِمْنَة، مَنْشُوراتِ مَكْتَبَةِ مِيَمَّة، بَيْرُوت، ط ٢٤٩/٢، ص ١٥.

(٢٠) يُنظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في التَّنْثِرِ الْعَرَبِيِّ، سابق، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢١) يُنظر: جرجي زيدان، تاريخ آدابِ اللغةِ الْعَرَبِيَّةِ، سابق، ٢٤٣/٢.

المُقْفَعُ، معروف أنه قُتل بيد الخليفة العَبَّاسِيِّ المنصور؛ لأنَّه لم يكن من أتباعه سياسياً، وكان في رواية، يَسْعى مع بعض الفرس، لقلب الدُّولَة العَبَّاسِيَّة لصالح العلوبيين^(٣١).

١٢. كِتاب فيه بُعد تعليميٌّ: سياسيٌّ، واجتماعيٌّ، وثقافيٌّ، وأدبيٌّ؛ فسياسيًّا، هو يُعلّم الأمّارَاء كيف يحكِّمون الرّعَايا، وكيف يتقدّمُ بعضهم بعضاً. واجتماعيًّا، يعلم النّاسَ كيف يتعَايشُون، ويُسِيرُون على طاعة أولي الأمرَ منْهُمْ. وثقافياً يُعلّم المُثُلُ العليا الثابتة، عمادُ المُجَتمَعِ. مثل طاعة السُّلطان، وحسن الصّدقة، والصّدق في القول، والعمل، وأدب الضيافة^(٣٢)، وما على السُّلطان أنْ يُلزم به نفسه (من حلم وعقل وتجنب للغضب، وحفظ للعهد والوفاء ووضع المعرفة والإحسان في موضعهما، وحسن السيرة، و اختيار الصالح من الأعوان والحرص على أهل الثقة منهم، واستشارة أصحاب الرأي، والعدل بين الرعية، وحسن السياسة الخارجية، وتقديم السلام على الحرب)^(٣٣). وكلّ أَنْ يُهمل البُعد التعليمي، كاتب يكتب عن كليّة ودمنة.

١٣. كِتاب يُرْكَزُ على القارئ، وعلى القراءة. يقول ابن المُقْفَعُ: (وينبغي لمن قرأ هذا الكِتاب أنْ يعرف الوجوه التي وضعَت له، وإلى أيِّ غاية جَرَى مؤلفه فيه عندما نسبَه إلى البَهائِم وأضافَه

(٣١) يُنظر: م. ن.

(٣٢) يُنظر: م. ن، ص ١٣.

(٣٣) عبد الله بن المُقْفَع، كليّة ودمنة، تحقيق مصطفى لطفي المنفلوطى، سابق، ص ١٦ من تقديم عمر أبو النصر.

لا يدلُّ على شخصيَّة ابن المُقْفَع، ولا يمثُّله؛ لأنَّه نقلَه، أو جمعَ آراء، وألَّفَ بينها فيه^(٢٦). ولعلَّ هذا التشكيك في النسبة، يحصر دور الكتاب في الوظيفة القوميَّة، التي تُعلَقُ عليه أثراً، في الحفاظ على بقاء الأمة، وتماسكها.

١١. كِتاب لا ذكر فيه للمُختلفين: إثنِيَّاً، أو جنسِيًّاً، أو عَنْصريًّا. ولا يحيل إلى انتماء مؤلفه لأيِّ مَمَّا مرَّ؛ لأنَّ الانتماء ذاتيٌّ، وانفعاليٌّ، ولا يخلو من عَذَاوة، وصِدام، وابن المُقْفَع رجل فكر. موضوعيٌّ، قليل التَّنويه بنفسِه، له قدرةٌ على فهم النفس الإنسانية، والرُّوح الذي يسيطر على المجتمع الإنساني^(٢٧). وهو يُغلب المُثُلُ العليا على الإنسان^(٢٨). ولا يتحدّث عن سلطة زمانية بعينها، أو شخصها. يظهر ذلك في أنه لجأ إلى الألِيغوريا. ومعروفة أنها تعرض شخصيات بشرية، أو حيوانية، أو تجرييدات مشخصة، (تكون لصفاتها وأزيائها وأعمالها وحركاتها قيمةُ العلامات، وتتحرك هذه الشخصيات في مكان وزمان لها بدورهما طابع رمزي)^(٢٩). ويقول عنه عمر فروخ: إنه تعرِيف بكل حاكم ظالم^(٣٠). وعلى صعيد سيرة ابن

(٢٦) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المُقْفَع وكتاب كليّة ودمنة، سابق، ص ٦.

(٢٧) يُنظر: م. ن.

(٢٨) يُنظر: م. ن، ص ١٣.

(٢٩) محمد القاضي، معجم السردِيات، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠، ص ٣٤.

(٣٠) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المُقْفَع وكتاب كليّة ودمنة، سابق، ص ٣.

عادة، سياسياً. أما الثانية فاعتبارية، تعتمد على السرد، التجارب، واستحضار المرويات الدالة على إمكانية إنشاء الأمة، وسبل استمرارها، أو انهيارها. وأدعوا هذا النوع من السرد (السُّرد الاعتباري). وكتاب الأُمم عند ابن المُقْفَع، يقترب من الفهم الثاني. يعود ذلك إلى هوية ابن المُقْفَع، وتجربته الشخصية، وشخصيته؛ فعلى صعيد الهوية، هو فارسي، وليس عَرَبياً. وإذا كان كذلك، فإنَّه يحتاج إلى تصوّر غير المبني على العرق؛ لأنَّ هذا ولد عَدَاوة مُستَعِرة، عُرفت بالشعبية، وكانت مصدر تهديد للأمة. ويحتاج إلى تصوّر مبني على إرادة نوع من أنواع التفاهم حول العيش المشترك، وإرادة ذلك العيش.

أما على صعيد تجربة ابن المُقْفَع الشخصية مع الدُّولَة، ومع الحاكم، فإنَّه لم يكن يحبُ الخليفة المنصور، ولم يكن الأخير يحبُه، وإنَّ العداء كان مُسْتَحِكِماً بينهما^(٣٦)، وذلك جعله يدرك أنَّ العَدَاوَة، التي تَتَسَع بسبِب طريقته في الحكم، ستنتهي إلى القضاء على الحكم، وعلى الأمة. والعَدَاوَة، تاريخياً، كانت قد بدأت تَتَسَع؛ لأنَّ العَبَاسِيِّين أعداء للأمويين، الحكام السابقين. ثم صاروا أعداء للعلويين، الذين بدأُوا ثورتهم على الأمويين معهم، وحين نجحت استأثروا بها.

(٣٦) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المُقْفَع وكتاب كِيلَة وَدِمْنَة، سابق، ص٩. وكانت العداوة هذه سبباً في قتل ابن المُقْفَع قتلة شنيعة على يد عامل المنصور، سفيان بن معاوية، الذي سَجَّرَ تنوراً، وأمرَ أنْ تُقطعَ أعضاؤه عضواً فعضواً، وتُلقى في النار، وهو يرى. يُنظر: الصفدي، الواقي بالوقايات، سابق، ج١٧، ص٣٤١.

إلى غير مُفْصِح وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثلاً، فإنَّ قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدرِ ما أُريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتنب منها ولا أي نتائج تَحَصَّل لهُ من مُقدَّمات ما تَضَمَّنَهُ هذا الكتاب)، فلا ينبغي أن يكتفي القارئ بظاهره. بل عليه عَدَ كلَّ شيء فيه رمزاً لما هو أبعد وأنفع. وعليه معرفة أنَّ القراءة الجيدة للكتاب لا تكون إلا بإدراك مداد الرَّمْزِي^(٣٤).

سؤال العَقْل والعاطفة في كتاب الأُمم

على أي شيء تعتمد الأمة، كما تفترضها كتب الأُمم، أو سردِياتها الاعتبارية؟ على الإيديولوجيا أم على العاطفة؟ هذا هو -افتراض- السؤال الذي تريده أن تجيب عنه كِيلَة وَدِمْنَة. أشير إلى أنه يوجد أكثر من فهم للأمة، الأول: المُتعالي، الذي يفترض وجود مشتركات. مثل اللُّغَة، والأرض، والتاريخ، وغيرها.. تُحَمَّ على الجماعة أن يشكلوا أمة، وأمة غير قابلة للزوال، وإن تعرّضت للاحطاط، في مرحلة من مراحل تاريخها، أو الاحتلال. أي أنَّ الأمة كائن عضوي، والثاني يعتقد أنها (بناء يُبني ويُصنَع بِإرادة البشر وقرارهم، وبنهار، كذلك، بِإرادة البشر وقرارهم^(٣٥). والأول إيديولوجي، يعتمد على منظومة من الأفكار، تفسِّر التاريخ، والواقع، ولها سمة التَّنبؤ بالمستقبل، والقسرية، أي تُفرض على الجماعة بالقوة. ولذا تُبني،

(٣٤) يُنظر: عبد الفتاح كيليطو، من شرفة ابن رشد، دار توبيقال للنشر، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، المغرب- الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص١٢، فصل كيف نقرأ كِيلَة وَدِمْنَة.

(٣٥) نادر كاظم، أمة لا اسم لها، سابق، ص٥٦.

وهي قصّة الكتاب، وسبب تأليفه. وتحكيها شخصيّة اسمها (بهنود بن سحوان)، ويُعرف بـ(عليٰ ابن الشّاه الفارسيّ)، والسبب هو خطر يعرض للأمة، مُتمثلاً بالاحتلال؛ فقد كان السبب الذي من أجله وضع بيدها الفيلسوف دبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة أَنَّ الاسكندر ذا القرنين الروميّ، أراد غزو بلاد الهند، فاستعدَّ له ملوكها، ثم التّقى، فانتصر الاسكندر. ووضع، أول أمره، عليهم رجلاً من عنده، ثم بعد مدة رفضوه؛ لأنّه ليس منهم، واجتمعوا يُملكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم، اسمه دبشليم. الكتاب يبدأ، إذن، بخطر يواجه الأُمّة، هو الاحتلال. وهو أعلى درجات العدَاوة؛ إذ هناك من يتوجّه إلى القضاء على الذّات: فعلياً، وماديّاً، أي بالقتل، أو بإذلالها، وحكمها. والاسكندر يضع على الهند رجلاً من ثقاته. وليس مصادفة أن يبدأ الكتاب بالاحتلال، أو بخطر يُهدّد الأُمّة.

وفي الحِكاية الأُمّ خَطْرُ آخْرٌ: داخليٌ يتمثّل في جور الحاكم المحليّ، دبشليم: (فلما استوسّق له الأمرُ، واستقرَّ له المُلْكُ طغى، وبغي وتجبر وتکبر...) (و) عبَث بالرعية واستصغر أمرَهم وأساءَ السّيرةَ فيهم وكان لا يرتقي حاله إلا زاد عنواً). ويكمِن الخَطَرُ في أنَّ الحاكم يولّد، بسلوكيه الظالِم، العدَاوة في الفُقوس، ويُهدّد الأُمّة، بجرّها إلى الصّراع، والقتال، والتفكّك. وهو، بفعله، لا يختلف عن، أثر خطر الاحتلال، في الأُمّة. وكلاهما، الخَطَر الداخلي والخارجي، مبنيان على العدَاوة؛ ففيهما جهة تُلْغِي الآخر، وآخر يرفض الإلقاء، ويثير ضده.

ثم للعائلة العَبَّاسِيَّة نفْسُها؛ فعبدُ الله بن عليّ بن العَبَّاس، عمُ المنصور ثار عليه، وكان ابن المُقْفَع كاتب أخيه عيسى بن عليّ، وقريباً من تفاصيل الصّراع، وكان طرفاً في تسويته؛ إذ هو كتب الأمان لعم الخليفة. ونتيجة لذلك، كله، يقول عبد الفتاح كيليطو: إنَّ الكِتاب نشاً (في مناخ من الارتياح والنّزاع السّافر أو الكامن) (٢٧).

بقيت شخصيّته، وكانت، كما يصفُها المؤرّخون، مُحبّة، كريمة، عطوفة. وكان في طباعه، سريّاً، سخياً، يُطعم الطّعام، ويصل كلّ من احتاج إليه (٢٨). وكانت شخصيّته نزّاعة إلى التعايش، على وفق شرط غير العرق، والدين. شرط إنسانيّ، يصحّ أنْ يُسمّى (المَوَدَة)؛ فبھويّته - ابن المُقْفَع - وتجربته، وطبيعة شخصيّته، حاول، في كليلة ودمنة، الإجابة على سؤال العقل والعاطفة.

كتاب الأمم والحكاية الأُم

كتاب الأمم، كتاب سرد اعتباري، أي يريد للقارئ أن يستخلص من الحِكاية العبرة، التي تفيده في فهم ما يحسُن فهمه، حتّى يُجنب نفسه، وأمّته، خطر التقى، والزوال. ومثل أيّ كتاب سريّ، فهناك بنية عميقة توجه بناءه الكلّي، وتحكم بحكاياته. وتنتألّف البنية العميقة من ثلاثة عناصر رئيسة. هي: الخطر، وطريقة مواجهة الخطر، والعبرة. وكلّها تَظَهُر في الحِكاية الأُم. وتُسمّى في الدراسات السّردية (الحكاية الإطار).

(٢٧) من شرفة ابن رشد، سابق، ص ١١.

(٢٨) يُنظر: الوافي بالوفيات، سابق، ج ١٧ ص ٣٤٠.

يكون ظاهره سياسة العَامَّة وتدريبها على طاعةِ الْمُلُوكِ وباطنهُ أخلاق الْمُلُوك وسياستها للرَّعْيَةِ). وقد فهم بِيَدِهَا طريقةً مواجهة الخطر: إنَّها في الخطاب اللَّيْنَ، المتودِّدُ، الذي يترفَّقُ بالمتلقِّي، أيًّا كان نوعه: من العَامَّة أمَّ الخاصة. من السُّوقَة أمَّ الملوك. وأيًّا كانت حاجته إِليه: استمتاعًا، أمَّ تدبِّرًا واعتبارًا. وهو يترفَّقُ بالمتلقِّي، ويُفِيدُه في حياته الاجتماعيَّة: (يكون ظاهره لهوًاللَّخَاصَةِ واللَّعَوْمِ وباطنهُ رياضَةُ لِعقولِ الْخَاصَّةِ، وضمْنهُ أيضًا ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ؛ فالغايةُ مواجهةُ الْخَطَرِ. ولكن بِأَسْلوبٍ لا يَسْتَثِيرُ العَدَاوَةَ). أسلوب الاعتبار، فحكايات كِلِيلَة وَدِمْنَةٌ تُبْنِي عَلَى ثَنَائِيَّةِ السُّرُدِ والاعتبار^(٣٩)، أسلوب ينهض على المودَّة، وعلى كسبِ ثقةِ الْحَاكِمِ، والقارئِ من بعده و يجعلُه يؤمن بِأنَّ خيرَ طريقة لدفع الْخَطَرِ عن الْأَمَّةِ، هي طريقة غير التَّسْلِطِ والإِكْرَاهِ، اللذين يجلبانِ العَدَاوَةَ. طريقة سيستخلصُها القارئُ من القراءَةِ، أيُّ العِبرَةِ. تلك التي ستتسنجُ نفْسَها علىِها الحكايات المُضْمَنةُ داخل الإطارِ، أوِ الْحِكَائِيَّةِ الْأَمَّ، وتوظفُ لِإقناعِ المُتلقِّي^(٤٠). إذا كان من الْخَاصَّةِ، ولتبثُّ ما يُريدُ الكِتابُ تبثِّته، في لَوْعِيهِ، إذا كان من العَامَّةِ.

الأَمَّ في كِتابِ الْأَمَّ

لاحظت في أثناء قراءتي كِتابَ كِلِيلَة وَدِمْنَةَ، دورًا رئِيسًا لِلْأَمَّ، والمرأة فيه، وهو دورٌ يُفَهَّمُ في سياق وصفِ الكِتابِ بِأَنَّهُ كِتابُ أَمَّ. والمثال

(٣٩) يُنَظَّرُ: محمد القاضي، معجم السردِيات، سَابِق، ص ١٥٦.

(٤٠) يُنَظَّرُ: م. ن، ص ٣٩٢.

تُبْنِي الْحِكَائِيَّةُ الْأَمَّ عَلَى خَطَرِيَنْ: صريح، وضمنيٌّ. الصَّرِيحُ هوُ الْخَارِجِيُّ: الْاحتِلالُ. والضَّمْنِيُّ هوُ الدَّاخِلِيُّ: ظلمُ الْحَاكِمِ الرَّعْيَةِ. وَتُبْنِي عَلَى مواجهةِ الْخَطَرِ، الغَايَةُ الْكَبِيرَى فِي كِتابِ الْأَمَّ؛ إِذَ الْمُؤَلِّفُ يُقدِّرُ وجودَ خَطَرٍ، عَلَى الْأَمَّةِ، وَيَجِدُ أَنَّ مَنْ واجَبَهُ أَنْ يُقْدِمَ لِلْحَاكِمِ، وَلِلْقَارِئِ، طَرِيقَةً مواجهَتِهِ. وَالْحِكَائِيَّةُ الْأَمَّ تُرِيَ القارئَ طَرِيقَتَيْنِ، وَتَخْتَبِرُهُما، لِتَرْجِحَ إِدَاهَمَا عَلَى الْأَخْرَى، وَتَسْتَعْمِلُهُ فِي الْحَكَائِيَّاتِ الْمُضْمَنَةِ فِي الْكِتابِ. الطَّرِيقَةُ الْأُولَى: الْمُبَاشِرَةُ، أَوْ غَيْرُ الْحِكَائِيَّةِ. وَفِيهَا يَتَوَجَّهُ الْحَاكِيمُ بِيَدِهَا إِلَى الْمَلِكِ بِالْقَوْلِ: (أَيَّهَا الْمَلِكِ إِنْكَ [...] قَدْ وَرَثْتَ أَرْضَهُمْ - يَقْصُدُ آبَاءَهُ وَأَجَادَادَهُ - وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عَدُوَّهُمْ فَأَقْمَتَ فِيمَا حُولَتْ مِنَ الْمُلْكِ وَوَرَثَتِ الْأَمْوَالَ وَالْجَنَوَدَ فَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ بِلِ طَغْيَةٍ وَبِغَيْرِهِ وَعَنْوَتَ وَعَلَوَتَ عَلَى الرَّعْيَةِ وَأَسَأَتَ السِّيرَةَ وَعَظَمَتْ مِنْكَ الْبَلَى). وَوَاضَحُّ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُبَاشِرَةَ لِيَسْتَ مناسبَة؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ غَضِبَ، وَأَمْرَ بِيَدِهَا أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبُ. وَغَيْرُ مَنَاسِبَةٍ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى النَّزَالِ الْعَسْكَرِيِّ، وَفِيهَا اسْتِثَارَةُ لِلْعَدَاوَةِ، وَتَأْجِيجُ لَهَا؛ فَبِيَدِهَا يَعْلَمُ رَفْضُهُ سُلُوكَ الْمَلِكِ، وَهُوَ، بِذَلِكَ، يُعَادِيهِ، أَوْ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ عَدُوِّهِ. وَلَيْسَ قَدَامَ الْمَلِكِ فِي هَذَا الْحَالِ إِلَّا أَنْ يَسْحَقَ عَدُوَّهُ.

أمَّا طَرِيقَةُ الْمُواجهَةِ الثَّانِيَةِ فَهِيُ غَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ، أَوِ الْاعْتَبَارِيَّةِ، باسْتَعْمَالِ الْقِصَصِ ذاتِ الْمُسْتَوَيَيْنِ: الظَّاهَرِ، الْإِمْتَاعِيِّ. وَالْبَاطِنِ، الْاعْتَبَارِيِّ. وَالطَّرِيقَةُ يَبْيَنُهَا دِبْشِلِيمُ، فَيَقُولُ لِيَدِهَا: (أَحَبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتابًا بِلِيَغًا تَسْتَفِرُ فِيهِ عَقْلَكَ

خطؤه إلى العامة، وعلموا أن إصرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم، وبه تتحجّ السفهاء، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة، انهارت المملكة.

تتضمن القصة ملگا ضعيفاً لا يميز بين المؤدة والعداوة، فيصدق العدو ويقتل الصديق. وذلك يُشكّل خطراً على الحاكم والرعيّة، يحتاج لمواجهته، ولدفعه، إلى قريب عاقل، لا شك في موته، حريص على الملك. وليس هناك أفضل من الأم لأداء هذا الدور. ومثل هذا الدور نجد للأم في باب الأسد وابن آوى الزاهد؛ إذ تدخل الأم في الحكاية، لتنقذ ابن آوى الزاهد من مكر بطانة ابنها، حاسدي ابن آوى مكانته: (تعلمتْ أم الأسد أنه قد عجل في أمره، فأرسلتْ إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخره). وكان الأسد رغب في ابن آوى الزاهد، لما بلغه عنه من العفاف، والتزاهة، والزهد، والأمانة. ولما آنسه وجده في جميع الأمور فوق غرضه، فولاه خزائنه، واحتضنه دون أصحابه، وزاد في إكرامه، فحسد أصحاب الملك، ودبّروا له مكيدة فأخْفَعوا اللّحم، غداء الملك، في بيته، وأخبروه أنّ ابن آوى ذهب باللّحم إلى منزله، فأرسل الأسد، أميناً إلى بيت ابن آوى، فوجد فيه ذلك اللحم، فغضّب الأسد، وأمر بabin آوى أن يُقتل.

وتشير الأم، في حديثها مع ابنها، إلى ضرورة تمييز المؤدة من العداوة، فعلى الملك معرفة أصحابه، وإنزالهم منازلهم؛ لأنّ تضييعه

الأوضح لحضور الأم، جاء في الباب الأول، باب الأسد والثور. وهو باب يُعقد على معنى العداوة؛ إذ يقول دبشي لم يلد بـالحِكيم في مفتاحه: (إضراب لي مثلًا للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء). ويبدأ الباب بانتباه دمنة إلى أنّ الأسد، ملكهم، ضعيف الرأي، وأنّه يستطيع أن يصيب عنده منزلة مكانة، وضعف الملك يمكن الخطر من المملكة؛ لأنّه يفسح المجال للأعداء، ويمكّنهم منه. وينجح دمنة في الوصول إلى الملك. وحين يُقرّب ثورًا يُدعى (شتربة)، ويتحذّه صديقاً له، يحسده دمنة، ويكيده له، ويخبر الملك أن شتربي خلا برؤوس جنده وأنّه سيغدر به. ثم يذهب إلى شتربي، ويخبره أنّ الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه، قد أعجبني سمن الثور، وليس لي إلى حياته حاجة فأنا أكله ومطعم أصحابي من لحمه. ثم أنّه أوقع العداوة في نفس الاثنين ودفع الأسد إلى قتل الثور. ويسمع أحد عمال الأسد، وكان مارًا على منزل كليلة ودمنة، كليلة يلوم دمنة على غدره، فيعلم الحقيقة فينقلها إلى أم الأسد، لا الأسد نفسه، لتدخل على ابنها وتلومه على فعله وتخبره من القاتل. وحين يتربّد في قتله لمقدرته على دفع الظنة عنه بالكلام والحجج المؤثرة، تغضب الأم على ابنها وتقول له: (إن أنا أغلطت في القول فلا تلموني، فإنك لست تعرف ضرك من نفعك. أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه؟). ولا تطمئن إلا بعقوبة دمنة، وقتلها؛ لأنّها ترى فيه المصلحة له، فإن وصل

أصحاب الود، وتمكينه أصحاب العداوة، يهلكه. والنصيحة الثانية المتصلة بالأولى أنّ على الملك، والحاكم، أنّ يعاقب ذوي العداوة، حتّى لا يجترؤوا على ما هو أعظم، ولا يكونوا سبباً في جرأة العامة.

ومثل هذا الدور نجده للمرأة، الزوجة، في باب (إيلاذ وبلاذ وإبراخت)، ويمثل البراهمة فيها الخطّر. وهم رجال الدين، الساعون في رغباتهم الدنيوية، ومصالحهم الشخصية. وهم في هذه الحالة يُجسدون العداوة، الخطّر الأشدّ على الحاكم، وعلى المملكة. وتذهب الحكاية إلى العائلة؛ كي تصور القصة بشاعة هذا النوع من العداوة، وخطرها، فحين يرى الملك في منامه أحلاماً تفزعه، ويستيقظ مروعًا، ويدعو البراهمة ليعبروارؤياه، يأترون بينهم لانتقام من الملك، ويسمونه «عدوهم». والملاحظ أنّ البراهمة يحاولون استغلال خوف الملك، وثقته بهم، للقضاء عليه، ويتفقون على أن يقولوا للملك: إنّ تفسير حلمه شرّ، لا يزول إلا بقتيل أحبابه، ومن يكرّم عليه: (نريد - يقولون له - الملكة إيراخت أم جوير المحمودة، أكرم نسائه، ونريد جوير أحبّ بنيك إليك، وأفضلهم عندك. ونريد ابن أخيك الكريم، وإيلاذ خليلك، وصاحب أمرك ونريد (كالآ) الكاتب صاحب سرك، وسيفك الذي لا يوجد مثله [...]. إنّما ينبغي أيّها الملك أنْ تقتل هؤلاء الذين سَمِّيناهُم لك، ثم تجعل دماءهم في حوض تملأه ثم تقعُ فيه، فإذا خرجم من ملكه.

تشدّد الحكايات السابقة على الانتباه إلى ذوي العداوة، وتمييزهم عن ذوي المؤدة؛ فبالأخرين يستقيم الملك، وتستمر الأمة. يقول الملك: ما سلمت من خطّر البراهمة إلا بعد مشاوره

والمساعد الأساسي للحاكم في التمييز بين المَوَدَّة والعدَاوَة، بعد الْأَمَّ، التي تميّز ذا المَوَدَّة من العدو بحَدِسِها، وقبل أن يأتِيَها البرهان، أو اليقين، الحَكِيمُ الذي يُظْهِرُ في صورة حَكِيمٍ، كما في قَصَّةِ الْمَلِكِ وَالبَرَاهِيمَة، وفي صورة الصَّدِيقِ، الذي يحمل المَوَدَّةَ لصَدِيقِهِ، وينهَا عن الخطأ، ويُلْوِمُهُ عَلَيْهِ، كما في كَلِيلَةِ الْذِي يَلُومُ دَمْنَةً. وهو، بمُوَدَّته الصَّادِقة، يخْدُمُ الْمُمْلَكَةَ بِطَرِيقِهِ غير مباشِرة؛ إذ يسمع النَّمْرُ أثْنَاءَ مرورِه على بَيْتِ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةِ لَوْمِ الْأَوَّلِ لِلثَّانِي، فَيُعْرِفُ كِيدَ دَمْنَةَ، وَيُنَقِّلُهُ لِلْمَلِكِ، فَيَقْامُ الْعَدْلُ، وَيَرْتَدُّ ذُوو العَدَاوَةِ فَلَا يَلْحِقُ الْأُمَّةَ شَرًّا مِنْهُمْ. والمساعد للحاكم، فضلاً عن الْأَمَّ وَالْحَكِيمِ، الأَصْحَابُ، عَمومًا، أو إخْوَانُ الصَّفَا، فـ(الأَخْوَةُ صَفَةُ جَامِعَةٍ يَهْدِي كُلَّ عَنْصَرٍ فِيهَا إِلَى تَثْبِيتِ الْعَنْصَرِ الْآخَرِ وَتَقوِيَتِهِ عَلَى الْاسْتِمرَارِ). فَوُجُودُ كُلِّ عَنْصَرٍ مُتَعَلِّقٍ باسْتِمرَارِ وجودِ الْعِنَاصِرِ الْآخِرِ. (وـ) العَدَاوَةُ صَفَةُ جَامِعَةٍ تَهْدِي إِلَى الإِلْغَاءِ، فَكُلُّ عَنْصَرٍ هُوَ مُلْغٌ لِلآخَرِ وَيَحْاولُ الْقَضَاءِ عَلَيْهِ. وبالتالي فـوُجُودُ كُلِّ عَنْصَرٍ مُتَعَلِّقٍ باسْتِمرَارِ وجودِ الْعِنَاصِرِ الْآخِرِ (٤١). والعبرة إنَّه بالموَدَّة تُدفع العَدَاوَة، وتَقْوِي الْأُمَّةَ، وَتَسْتَمِّرُ، وتواجه المخاطر، وأَشْرُّها العَدَاوَةُ. وأنَّه إذا توفَّرت الموَدَّةُ عند الرَّعْيَةِ للحاكم، وعندِ الحَاكِمِ لِلرَّعْيَةِ، نجَّتِ الْأُمَّةُ، وَاشْتَدَّتْ، وَازْدَهَرَتْ.

(٤١) سعيد جبار، خطاب الأمثلة، "حوار الفكر والسلطة مقاربة تداولية معرفية"، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٩، ص. ٦١.

أهل المَوَدَّةِ. وإنَّه أمر لا يتأتَّى لِلْمَلِكِ، من دون مساعد، هو المَرْأَةُ، أُمًا وزوجًا، أي باللجوء إلى العائلة، والتَّقْدِيرُ فيها، ومن بعدها، الأَصْدِقَاءُ، أو إخوان الصَّفَا، ويُخَصَّ لَهُمْ ابنُ المُقْفَعِ الْبَابِ الثاني من الْكِتَابِ؛ لأنَّ هؤُلَاءِ مُوَدَّتُهُمْ حَقِيقَيَّةٌ: (إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَعْدِلُ بِالْإِخْوَانِ شَيْئًا)، فالإِخْوَانُ هُمُ الْأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ)، ولأنَّ المَوَدَّةَ تَتَفُّقُ عَلَى الطَّبَابِ الرَّدِيَّةِ؛ فـالْجُرْذُ، في بَابِ الْحَمَامَةِ الْمُطْوَقَةِ، كان حَرِيصًا عَلَى الدِّنَيَا، وَعَلَى الْمَالِ، لِيَنْتَهِي بَعْدَ تَجْرِيَةِ إِلَى حِكْمَةِ مَفَادِهِ: إنَّه لا شيءَ مِنْ سُرُورِ الدِّنَيَا يَعْدِلُ صَحْبَةَ الإِخْوَانِ، ولا غَمَّ فِيهَا يَعْدِلُ الْبَعْدُ عَنْهُمْ. وجَرَّبَ - يقول - (فَعَلِمَ أَنَّه لا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَ الدِّنَيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الْأَذْنِي عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ إِذَا اشْتَملَ عَلَى صَحَّةِ الْبَدْنِ وَرَفَاهَةِ الْبَالِ). وَتَتَفُّقُ الصَّدَاقَةُ وَالْمَوَدَّةُ عَلَى اختلافِ الطَّبَابِ؛ إذ يَرْكَزُ الْمُتَلَقِّيُّ (الْحَمَامَةُ وَالْجُرْذُ وَالْغَرَابُ) عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اختلافِهِمْ، (الْغَرَابُ مِنْ أَكْلَةِ الْجُرْذِ فِي الطَّبَابِ، وَهُوَ مَا خَشِيَّهُ مِنْهُ الْجُرْذُ أَوْ أَمْرِهِمَا)، على أهمية الصَّدَاقَةِ:

الغراب: وإنَّ أولَى أهلِ الدِّنَيَا بِشَدَّةِ السُّرُورِ مَنْ لَا يَزَالُ رَبِيعُهُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا.

السلحفاة: لَا يَعِيشُ مَعَ فَرَاقِ الْأَحَبَّةِ. وإنَّا فَارَقْنَا أَلَيْفَ أَلَيْفَهُ فَقَدْ سَلَبْنَا فَوَادِهِ، وَحُرِمْ سُرُورَهُ، وَغَشِيَ بِصَرِهِ.

خلاصة

يفهم من لفظ (كتاب الأُمم)، إنه كتاب غايتها حماية الأُمة من الخطر، الذي يهددها، خارجيًا، وداخليًا. ويكون بناء الحِكاية في كتاب الأُمم من ثلاثة عناصر أساسية هي: الخطر، ومواجهة الخطر، والعبرة. والعبرة ما يخرج به القارئ من الحِكاية، وعليه أن يعتبر به، ويفيد منه، ويطبقه في حياته، لكي يحمي نفسه، ويحمي أمنه. والعبرة من كتاب كليلة ودمنة تغليب المَوَدة على العَدَاوة، فإن بها تسهل مواجهة الخطر. وما العَقل، والتَّأْنِي، والحِلم، والأَهْل، والأَصْدِقَاء، والْحُكْمَاء، إلَّا مساعدون، يُمْكِنُون المَوَدة، ويُمْدِّونها بأسبابها، لتستمر، وتقوى، وتتغلب على العَدَاوة، وعلى خطرها.

إن كتاب الأُمم، كتاب قضيّة، ذات صلة بالأُمة، وبالجماعة، لا كتاب يُعبّر عن الذّات وعن المؤلّف، أو عن الأقليّات، أو شخصيّات لها مرجعيات في الواقع. ولا يمثّل مصلحة مؤلّفٍ، أو دينٍ، أو مذهبٍ، أو إثنية، أو جنس؛ فغايتُه بقاء الأُمة، وتعليم حُكّامها، وأبنائِها، المحافظة عليها؛ لذلك كلّه يُستعاد كتاب كليلة ودمنة عبر العصور، مرّات، ومرّات؛ فالأُمم تحتاج، في كلّ حقبة من حقب التّاريخ، وبحسب نوع الأخطار التي تواجهها، إلى كُتب الأُمم. ولذا يبقى حيًّا ومؤثّراً، وحاضرًا في حياتنا الثقافية، على الرّغم من مرور أكثر من ألف ومئتي سنة على تأليفه، أو ترجمته.

المصادر والمراجع

المصادر:

- القاهرة، د.ت، ج ٢.
- ضيف: شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط ٨.
- ضيف: شوقي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط ١٠ / ١٩٩٦.
- ضيف: شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، د.ت.
- فروخ: عمر، عبد الله بن المحقق وكتاب كليلة ودمنة، منشورات مكتبة ميمونة، بيروت، ط ٢ / ١٩٤٩.
- القاضي، محمد (تحرير)، معجم السرديةات، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠.
- كاظم: نادر، أمّة لا اسم لها، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٢١.
- كيليطو: عبد الفتاح، من شرفة ابن رشد، دار توبيقا للنشر، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، المغرب- الدار البيضاء، ٢٠٠٩.
- الهاشمي: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعرفة، بيروت، د.ت، ج ٢.

المجلات:

- سرحان: هيثم، تمثيلات التابع والردد بالكتابة -قراءة بلاغية في الرسالة الهاشمية لابن المحقق، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ١٦٦، ٢٠٢٤.

المراجع:

- أمين: أحمد، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢.
- جبار: سعيد، خطاب الأمثلة، "حوار الفكر والسلطة مقاربةً تداولية معرفية"، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٩.
- الدوري: عبد العزيز، العصر العباسي الأول، مطبعة التفليس، بغداد، ١٩٤٥.
- زيدان: جرجي، تاريخ أدب اللغة العربية، راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف، دار الهلال،